أهل الشام

ريبورتاج

تبدّلت أحوال دمشق مرات كثيرة في خلال الحرب. قد لا يُلاحظ سكّانها حجم التغيّرات، بفعل معايشتهم اليومية لها، غير أنّ الزائر سينتبه إلى الفروقات، كلّما عاود زيارتها

دمشق التناقضات «لكِنّا نحبّ الخبز أكثر»

صهيب عنجريني

«ياسمين شو لك عمّي؟ اسألني عن الخبز»، يجيب أبو الفوز ضاحكاً، حين نسأله عن «الياسمين الدمشقي». يعمل الرجل الستيني سائق سيارة أجرة في العاصمة السوريّة، حين سألَنا عن وجهتنا، قلنا ممازحين: «خذنا إلى الياسمين الشامي، وأخبرنا خلال الطريق ماذا يعنيه لك». لا مبرّر لدهشتنا، لكنها كانت حاضرة (ربّما بفعل آلية تفكير نمطيّة) حين شرع الرجل يردّد مقطعاً من شعر محمود درويش، بتصرّف «إنّا نحبّ الورد، لكنّا نحبّ الخبز أكثر». نقول مصحّحين: «نحب القمح»، فيجيب: «بعرف لك عمي بعرف، بقيت أربعين سنة مدرس لغة عربيّة. بس بحالتنا اليوم ما عاد في مكان للرمزية، لقمة الخبز استعبدتنا». لدى أبو الفوز حكاية بائسة، حاله حال معظم السوريين بعد ثمانية أعوام من الحرب. خلاصة الحكاية: رجلٌ ستيني، يعيش في شقة مستأجرة مساحتها 65 متراً مربعاً، مع كنّتين وسبعة أحفاد، وذكريات عن ابن شاب قطفته الحرب، وابنين آخرين وابنة تفرّقوا في «بلاد الله الواسعة».

الحرب مستمرّة

في الشهور الأخيرة، بات خلو معظم التفاصيل الدمشقيّة من الروح سمة شديدة الوضوح، وبطريقة توحي بأنّ كثيراً مما تراه في العاصمة مصطنعٌ وغير حقيقي، ولا سيّما مظاهر الابتهاج. يؤكد أحد الصحافيين القاطنين في العاصمة الفكرة السابقة، ويقول إنّ الفترة التي عاش فيها الشارع شيئاً من الابتهاج الحقيقي كانت الأسبوعين الأخيرين من العام الماضي. يُردّ الأمر إلى أن دمشق عرفت في تلك الفترة القصيرة استقراراً خدميّاً، قوامه توافر «عصب الحياة الحديثة» من حوامل طاقة، وتغذية كهربائيّة شبه دائمة. وتزامن ذلك مع احتفالات عيد الميلاد ورأس السنة، التي أُريد لها أن تكون كبيرة. اليوم، ومع انتصاف السنة التي صدّق الكثيرون في مطلعها أنّها ستكون «سنة الابتهاج بالنصر»، يبدو المثل الشعبي «ذاب الثلج، وبان المرج» أكثف تعبير عمّا آلت إليه الأمور. لا يحضر «النصر» في أحاديث النّاس، اللوحات الإعلانيّة التي كانت تحتفي به أزيلت أخيراً، وسلّم الجميع بأنّ «الحرب مستمرّة، ولو تغيرت صورتها».

لا أحد «يحكي سياسة»

لا تحضر أحاديث السياسة، أو الوضع العسكري، في يوميّات دمشق، إلا في شكل محدود وضمن نطاقات معيّنة. ربما كان مفهوماً انخفاض اهتمام معظم الشرائح، بعدما غادرت الحرب العسكرية بعيداً، لكن الغريب انسحابُ الحال على جلسات كثيرة تضم صحافيين، ومثقّفين، ومشتغلين بـ«الشأن العام». لا يختلف الأمر كثيراً في جلسة تضم نُخباً فكرية معارضة، وبرغم أن طبيعة الجلسة المذكورة كانت اجتماعيّة بحتة، فإنّ خلوّها من أي نقاش يتناول «الوضع» يعكس - على الأرجح - قدراً كبيراً من التسليم بعبثية ما تعيشه البلاد. في المقابل، يحضر انتقاد الأداء الحكومي همساً، في بعض الجلسات التي تضمّ نُخباً محسوبة على الموالاة، مع كثير من اليأس من احتمال «تغيّر أي شيء».

ما بعد الصّدمة

لا يوافق ماجد (اسم مستعار) على أنّ سكان العاصمة يعيشون اليوم «تحت وقع الصدمة». يصوّب الأمور بالقول «هي مرحلة ما بعد الصدمة، وهذه أقسى بكثير، لقد استوعب معظم الناس هول ما عاشوه، ويعيشونه». لعبت الأزمات الخدمية التي عرفتها العاصمة في الشهور الماضية دوراً أساسياً في تبدل المزاج العام. فاقم الركود الاقتصادي صعوبة الموقف، واستنزف ما تبقى من مدّخرات السواد الأعظم من السكّان، بعدما أكلت «السنوات العجاف» معظم تلك المدخرات. في كثير من الأسواق تتكرر المشاهد ذاتها: ازدحامٌ في الشوارع، فيما المحالّ فارغة، أو تكاد.

> ينقضي اليوم بين دروس تعلّم اللغة وبين ساعات العمل

تناقضات... ومبالغات

إذا كان التناقض الصارخ سمة ملازمة للعواصم، فإنّه في دمشق يبدو أكبر بكثير من المألوف. «الحرب تلعب دور العدسة المكبّرة»، يقول فادي معلّقاً على الملاحظة المذكورة. يستفيض الرجل، وهو طبيب، في الحديث عن سوء الأوضاع الاقتصادية، والشكوى من صعوبة تأمين مستلزمات الحياة. حين نطلب نصيحته بمطعم يقيم مائدة إفطار رمضاني، يذكر فادي اسمي مطعمين «طعامهما طيب، وتكلفتهما مقبولة». المفارقة أن تكلفة إفطار الشخص الواحد في كل من المطعمين تقارب العشرة آلاف ليرة، وهو رقم كبيرٌ في بلد لا يتجاوز راتب الفئة الأولى من موظفيه (بمن فيهم حملة الدكتوراه، والماجستير) حاجز الـ 50 ألفاً (أقل من 100 دولار، وما يكفي لإفطار خمسة أشخاص فحسب). تُعد أسعار الوجبات في المطاعم أحد أبرز المؤشرات على تناقضات العاصمة. وفي حين يكلّف إفطار الشخص الواحد قرابة 3 آلاف ليرة في حي «الميدان» (مائدة مليئة باللحوم)، فإنّها تصل الى 12 ألفاً في مطاعم أخرى، فيما يتقاضى أحد فنادق المدينة القديمة 6 آلاف ليرة عن وجبة السحور للشخص الواحد، ويتجاوز ثمن فنجان القهوة في أحد المقاهي 3 آلاف (حوالى 6 دولارات). بالتوازي مع التناقضات، تُمكن ملاحظة تفاقم المبالغات في كثير من التفاصيل، ولا سيّما تلك المرتبطة باصطناع الفرح. يُقدم حي «باب شرقي» نموذجاً صارخاً في هذا الإطار، بعدما تحوّل إلى منطقة مخصصة للسّهر، بباراته المتزايدة بسرعة لافتة. على نحو مشابه، تشكل «حديقة الجاحظ» أحد نماذج المبالغة في كثير من التفاصيل. ويبدو لافتاً أنّ عربةً «شعبيّة» لبيع المشروبات الساخنة، تُقدّم لزبائنها أصنافاً لا تجدها في كثير من «المقاهي الفخمة» في محافظات أخرى. لا مبرر للاستغراب لدى انتباهك إلى أن معظم تلك الأصناف «ماركات مهرّبة»، برغم الحملات الشعواء «لمكافحة التهريب»، فأصحاب هذا النمط من العربات «وراهم واسطات ثقيلة».

«حكواتي النوفرة» شبه وحيد

لا يزال مقهى «النوفرة»، أحد أعرق مقاهي العاصمة، محافظاً على تقليد «حكواتي رمضان». يوميّاً، وفي التاسعة والنصف ليلاً تُطفأ الشاشة الضخمة الغريبة عن نسيج المكان، ويصمت صوت مسلسل «الهيبة»، لتبدأ الحكاية، مع عدد قليل من الزبائن. فيما يفضّل العدد الأكبر الجلوس في الباحة الخارجيّة للمقهى، على مقربة من الجامع الأموي. لا تبدو متابعة «سيرة عنترة» مثيرة لانتباه الزبائن المعدودين، بقدر ما يتركّز اهتمامهم على استخدام هواتفهم الذكيّة، لالتقاط صور للحكواتي بملابسه التقليدية، تمهيداً للتغنّي بها عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

لا مكان للمجاز

«تغيّرت الشام كثيراً». تصرّ زينة على تكرار الجملة، رافضةً كلّ التفسيرات التي يقدّمها أصدقاؤها، من «هجرة الأصدقاء»، إلى «أثر الحرب»، إلى «الوضع الاقتصادي». «تغيّرت الشام، تغيّرت روحها، ما عادت تشبه حالها»، تقول الصبيّة الدمشقية بنبرة محايدة، تكاد تخلو من الأسى، ويهيمن عليها اليأس. نتذكّر السائق أبو الفوز، وصديقه الكبير، محمود درويش، إذ «لا مكان للمجاز» في دمشق اليوم، ولا معنى للبحث عن «الغريب» الذي «ينام على ظلّه واقفاً»، فيما كثير من «أبناء البلد» لا يجدون سقفاً ينامون تحته.

يصمت صوت مسلسل «الهيبة» في «النوفرة» لتبدأ الحكاية مع عدد قليل من الزبائن (الأخبار)

بدأت امتحانات الصفوف الانتقالية في مرحلتي التعليم الأساسي والثانوي، فيما يستعد تلاميذ الشهادتين الأساسية والثانوية لامتحاناتهم التي تنطلق الشهر المقبل (الأخبار)

تصميم: سنان عيسى

لقطة

موائد رمضانية دافئة لفقراء اللاذقية

علاء حلبي

في ساحة «الشيخ ضاهر» وسط مدينة اللاذقية، يجتمع يومياً عدد من فقراء المدينة، لتناول الإفطار، في مقهيين شعبيين، عُلّق أمام كلّ منهما إعلان مكتوب بخط يد واضح وأنيق: «إفطار مجاني للصائمين طوال شهر رمضان المبارك».

على الرصيف، وأمام مقهى «الجمّال»، يبدو المشهد لمن يراه من بعيد كإفطار عائلي. مجموعة من الأشخاص يتبادلون الابتسامات والنكات، بينما يوزع ثلاثة شبان الماء، ويسكبون الطعام في صحون أنيقة، ومع الاقتراب قليلاً تتضح الصورة أكثر: إفطار خيري حول مائدة دافئة.

يرفض أصحاب المقهى الخوض في التفاصيل، ويطلب أحد الشبان بأدب وحياء عدم التقاط أية صورة قريبة. «يمكنك التقاط الصورة من بعيد، لا بأس في ذلك»، يقول شاب في الثلاثين من عمره، بينما يتابع سكب الطعام في الصحون. شاب آخر يوزّع الماء وبعض المشروبات على الطاولة، يشير بكلمات مقتضبة إلى أن «واحداً من أهل الخير يساهم معنا في هذا الإفطار»، ويضيف: «للعام الثاني على التوالي نقوم بذلك».

على مقربة من المقهى، يجتمع عدد من الرجال والنساء والأطفال حول طاولة صغيرة أمام مقهى «الروضة». فيما يوزع شابان علباً مملوءة بالطعام، على عدد من الأشخاص حول المقهى، ضمن مبادرة مستمرة منذ سنوات. يوضح أحد العاملين أن هذه المبادرة أطلقها صاحب المقهى قبل سنوات، واستمرت بعد أن تولى الإدارة مستثمر جديد، الأمر الذي «زاد من الخير». ويقدّم صاحب المقهى الطعام، بالتعاون مع سيدة لم يُفصَح عن اسمها، فيما يقدّم المستثمر الجديد الحلويات. يرفض الجميع الحديث عن عدد الوجبات التي يقدمونها، أو عدد المحتاجين الذين يستفيدون من هذه الموائد، فـ«الخير وافر، وصحة وهنا على قلوبهم»، يقول العامل في مقهى «الروضة»، قبل أن يردّ الفضل في ذلك إلى «أهل الخير»، بخجل.

أمام «الروضة»، تمدّ طفلة صغيرة رأسها بين الجموع، وتحاول معرفة وجبة اليوم. «كل يوم أكلة شكل»، تقول الطفلة، قبل أن تشير لطفلة بقربها إلى طبق الحلويات الذي يضعه أحد العمال على الطاولة. تضحكان معاً، وتقتربان من طاولة التوزيع.

شادي و«آخر صلبان» دير الزور

صفاء صلال

الرحلةُ إلى «كنيسة السيدة العذراء» في مدينة دير الزور شرق سوريا ترسم دروباً من الآلام. فجّر تنظيم «داعش» الكنيسة غداة سيطرته على أجزاء واسعة من المدينة عام 2013، ساحة المذبح هي كل ما بقي من الكنيسة. الدمار سيد المشهد، باستثناء بقايا جدران لا تزال قائمة، ربما أخطأها التفجير. بخطوات متثاقلة يسير شادي توما، ابن دير الزور، باتجاه ساحة المذبح، يرمق سقف الكنيسة التي كانت لوحة فنية مزخرفة. عاش الشاب الثلاثيني حصار «عروس الفرات» بكل تفاصيله. يقول إن صموده في دير الزور كان «رسالة إلى العالم»، وكأن مصيره «توحد مع صليب الكنيسة ليغدو ميلاداً جديداً». يحكي الشاب لـ«الأخبار» عن شغفه بمدينته: «ليس لسحر جمالها، بل لأنها تسكنني قبل أن أسكنها. هي مدينة الحب والحرب. الحياة فيها غير الحياة». شكّل شادي نموذجاً فريداً للتحدي، آثر البقاء في مدينته، برغم نزوح جميع رعايا الكنيسة (نحو 300 عائلة)، ليكون «المسيحي الوحيد الباقي في الدير»، وفق تأكيده. يستذكر توما الحصار بتندّر، قائلاً: «من أظرف اللحظات وسط الحصار أن تكون معدتك خاوية، فتؤنسك قرقعتها في ظلمتك ووحدتك». خلال الحرب على مدينته، دأب الشاب على الانطلاق كل صباح لتوثيق ما يجري من عمليات عسكرية، لكونه مراسلاً لإحدى الإذاعات السورية. «مساحة الرقعة الآمنة في دير الزور آنذاك لم تتجاوز كيلومتراً مربعاً واحداً»، يقول. ويضيف: «لكنها كانت ملاذاً آمناً رغم المحيط الملتهب حولها، احتوتنا بكل مآسينا. برغم الجوع والأهوال التي عشناها، ووداعات رفاقنا الذين ارتقوا تباعاً من جراء قذائف الإرهابيين، كنا نعود إلى حياتنا الروتينية». يلخص شادي لحظة فك الحصار عن مدينته «المحن تتلوها المنح. لذلك لم نفقد الأمل بفك الحصار، وكنا نبصر نور القيامة». لشادي معشوقة جميلة، هي آلته الموسيقية (الغيتار)، التي آنسته في ليالي الحصار. اليوم، عاد عدد من أبناء المدينة إليها، بعد أن رحل «الطاعون». يؤكد شادي أنّ «العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في المدينة ما زالت متناغمة، وأشبه بنوطة موسيقية مترابطة على أساس المحبة». بعد فكّ الحصار انتقل شادي إلى العمل في المجال الانساني، فعُين مديراً لمستوصف «هيئة مار أفرام السرياني البطريركية للتنمية». عن عملهِ يقول: «وظفتُ محبتي لأرض الدير لمحبة سكانها، فإن لم تحب الناس فلن تستطيع تقديم المساعدة». المستقبل بالنسبة إلى الشاب «يتجلى في جسر ونهر بضفتيه، وأناس بسطاء يتناغمون فيما بينهم».

وجوه

دمعة أبو الورد «الطيّبة»: سلام إلى سلقين

لم يتغير شيء منذ أكثر من ثلاثين عاماً في حياة أبي محمد. يستيقظ يومياً في الثامنة صباحاً ليبدأ بإعداد العصائر والمشروبات التي يبيعها، لكن شهر الصيام يفرض عليه المزيد من الهمّة، فالصائمون على موعد يومي مع شراء مشروب «التمر الهندي»، الذي يصنعه الرجل الخمسيني بخبرة وجودة عاليتين. يلقبّه الزبائن بـ«أبو الورد»، بسبب جودة مشروباته وطيب مذاقها. «معروف أبو الورد بالدمعة الطيبة»، سيكون هذا الجواب حاضراً على ألسنة معظم سكان المنطقة، إذا ما طلبت النصيحة أثناء بحثك عن بائع مشروبات وسط مدينة اللاذقية. يقف أبو الورد بلباسه التراثي وطربوشه، عند زاوية شارع «القوتلي» المزدحم. «أعمل في بيع السوس والتمر الهندي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، والجميع حفظ موقعي هنا»، يقول لـ«الأخبار». ويؤكد أحد زبائنه أنّ أبو محمد «بات جزءاً من ملامح رمضان في اللاذقية». خارج شهر الصيام، يستخدم أبو الورد دراجة نارية بثلاث عجلات (طريزينة)، ويتجوّل ليبيع المشروبات. قبل سنوات كان يجول على قدميه، حاملاً الإبريق الفولكلوري الكبير على ظهره، لكن «العمر إلو حقو» يقول الرجل، ويؤكد أنّه مطمئن إلى أن مهنته «لن تنتهي في كل الأحوال»، فقد بدأ بتعليمها لابنه، كي يرثها من بعده. يعتمد أبو الورد «سياسة اقتصادية»، تقوم على بيع أكبر كمية ممكنة بأسعار منافسة وجودة عالية. سكن أبو محمد اللاذقية منذ كان فتيّاً، قادماً من إدلب. اليوم، ينتظر ابن مدينة سلقين انتهاء الحرب، ليقضي شهر رمضان مع إخوته هناك، فهم ما زالوا ينتظرون منه إعداد التمر الهندي البارد، ليشربوه معه بسلام.